ب ـ الوضع الاجتماعي والسياسي في الجزيرة العربية:

سكن الجزيرة الإنسان السامي منذ القديم، وتحديدا الفرع العربي. وقد قسم العلماء القدامى العرب إلى قسمين كبيرين: العدنانيون والقحطانيون.

يقصد بالعدنانيين عرب الشمال أي الحجاز ونجد وجنوب العراق وبادية الشام، وينتسبون إلى عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ويطلق عليهم أيضا العرب المستعربة، لأنّ أصلهم ليس عربيا خالصا، لأن إسماعيل تعلّم العربية وهي ليست لغته الأم، وتزوج من قبيلة جرهم وهي قبيلة يمنية قديمة فكوّن نسلا جديدا. أما القحطانيون فهم أهل اليمن وعمان، أي عرب الجنوب، وسموا العرب العاربة، لأن العربية لغتهم الأصلية وهم أقدم من العرب المستعربة، وينتسبون إلى نسل قحطان بن يعرب.

وهناك فرع ثالث هو العرب البائدة، وكما يتضح من اسمهم لم يكن لهم وجود عندما ظهر الإسلام، ومن قبائلهم المعروفة عاد وثمود وجديس والعماليق. لكننا من الناحية التاريخية لا نعرف عنهم شيئا يذكر إلا ما ورد من الأخبار والأساطير.

وقد استحكم العداء بين العدنانيين والقحطانيين، عرب الشمال وعرب الجنوب، إلا أن ذلك لم يمنع الترابط الثقافي والاجتماعي والاقتصادي، فقد عاشت مدن الحجاز ولاسيما مكة على التجارة الوسيطة بين اليمن جنوبا والشام شمالا، كما أن قبائل قحطانية بأكملها هاجرت واستقرت بالشمال كما هو حال الأوس والخزرج، وكذلك رحل بعض العدنانيين إلى اليمن، ومن وجوه هذا العداء ما كان بين يثرب ومكة من منازعات قبل الإسلام بل وبعده.

اجتماعيا اعتمد العرب نظام القبيلة، وهو نظام سابق على نظام الدولة، حيث ينتسب كل فرد إلى قبيلة ما تؤمن بأصلها الواحد، أي بانتساب جميع أفرادها إلى رجل واحد تسمى عادة باسمه، كمضر وربيعة وأوس، وتتوالد القبائل بعضها من بعض ويحدث ذلك عادة عندما يبرز رجل عظيم فينسب أولاده وأحفاده إليه مكونا قبيلة جديدة، أو عندما يغادر بطن من بطون القبيلة إلى أرض أخرى فيسمى تسمية جديدة، ومعنى ذلك أنّ الأنساب تظهر أنّ كل القبائل العربية تنتسب إلى أصل واحد.

وقد ارتبطت هذه القبائل بأحلاف، كما عاشت خصوما وحروبا بينها لأسباب مختلفة، بعضها منطقي كالصراع على المراعي والآبار، وبعضها لأسباب شخصية بين

بعض الأفراد، كالتنافس على امرأة، أو رهان سباق خيل، أو شجار في سوق، فتهب قبيلة كل طرف إلى مناصرة ابنها ضد خصمه، ويتحول النزاع الشخصي المحدود إلى نزاع جماعي شامل، وهذا من أسباب تسمية هذا العصر بالعصر الجاهلي نظرا لتعصب أفراده لقبائلهم تعصبا أعمى دون تبصر وتنافسهم في ذلك، مع حماس وغضب وانفعال شديد.

مخطط 1 :

عدنان

معد

نزار

ربيعة مضر

عنزة نمر وائل قيس عيلان تميم ضبة هذيل خزيمة

بكر تغلب سليم هوازن غطفان أسد كنانة

ثقيف عبس ذبيان فهر

قريش

مخطط 2 :

قحطان

يعرب

يشجب

سبأ

كهلان حمير قضاعة

طيء لخم جذام مراد كندة همدان مذحج أزد جرم بلي جهينة عذرة كلب

أوس خزرج غسان تنوخ

للقبيلة نظام هرمي يمكن تمثيله بالشكل التالي:

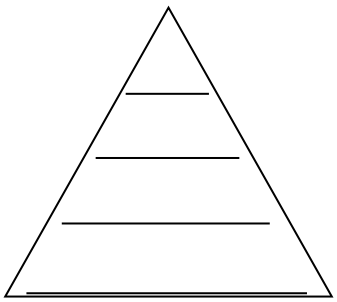

السيّد
شيوخ القبيلة أو رؤساء البطون
الأحرار
الموالي
العبيد

في هذا النظام نجد سيد القبيلة، وسلطته معنوية ونسبية وليست مطلقة، تعتمد على احترام أفراد القبيلة له وطاعتهم الاختيارية أوامره، بحسب العرف والعادة، ويشمل واجب السيد فض المنازعات الداخلية، وعقد الصلح، وإعلان الحرب، وقيادة المقاتلين وتدريبهم، والإشراف على احتفالات القبيلة ونشاطاتها العامة، وإقامة الجنائز، وإعانة المعوزين.

ويساعده في هذه الأعمال مجلس يدعى النادي يتكون من شيوخ البطون (رؤساء الفروع والعشائر)، وفيه يتم تبادل الرأي، وعقد المناظرات والاجتماعات، وتكون قراراته بالأغلبية وهي ملزمة لكل فرد في القبيلة.

ثم يأتي بعد ذلك الأفراد أي أبناء القبيلة وفرسانها ونساءها الأحرار من الشبان والكهول والأطفال، وهم يتفاوتون بينهم في الأهمية بحسب أمور مختلفة كالغنى والحسب والنسب والعلم والشهرة والكفاءة. وعادة ما يكون لفرسان القبيلة وشبابها مقدّم أو زعيم يسمى سيّد الشباب، أو شيخ الشباب، يكون أكثرهم شجاعة وأحسنهم نسبا، وأقدرهم على النجدة والكرم.

ثم يأتي الموالي وهم أبناء القبائل الأخرى الذين يعيشون في كنف القبيلة وحمايتها، حيث يحدث أحيانا أن يخرج فرد من قبيلته الأصلية لسبب ما فيلتجأ إلى حماية قبيلة أخرى في عملية معترف بها تسمى الاستجارة، ويتمتع المستجير ـ إن أُجير ـــ بحماية مجيره ورعايته دون أن يكون مطالبا بالاشتراك في القتال معه، فإن حدث وحارب معه انتقل من وضع الأجير إلى وضع أرقى هو وضع الحليف، وقد كانت

هذه العملية أي الإجارة دليلا على عظمة القبيلة المجيرة وكرمها وحصـــانتها، لذلك كان العرب لا يتوانون عن إجارة من يستجير بهم ولو كان وراءه خطب عظيم، لما لها من مدلوله اجتماعي مشرّف يدل على العزة والمنعة، بغض النظر عمن أجار أكان فقيرا أم غنيا سيّدا، ظالما أو مظلوما، فالإجارة تتم عادة باسم القبيلة ككل، لكن المستجير عادة ما يتخير سيّدا من سادة العائلات الكبيرة الغنية ليطلب حمايته، وانعكس ذلك في المفاخرات الشعرية بعدد المستجيرين وكثرتهم.

أما العبيد فعادة ما يكونون من الســـود الذين يجلبون قهرا من الحبشـــة، أو من المولّدين (أب عربي حرّ وامرأة من العبيد الســـود)، أو يكونون من الأســـرى العرب الذين إن لم تدفع قبائلهم فديتهم انتقلوا من وضع الأسر إلى وضع العبودية، كما قد يكونون من الروم والفرس وغيرهم من الشعوب المجاورة.

وتجدر الإشـــارة إلى أنّ النظام القبلي ليس حكرا على العرب، وليس نتيجة ظروف الصحراء كما يتصور البعض، بل هو نظام اجتماعي وسياسي عرفه الإنسان في مناطق كثيرة من العالم، فهو مرحلة تاريخية تسبق تكوين الشعب أو تكوين الدولة، أي قبل أن يتكون شـعور قومي أو وطني لدى الفرد يكون لديه أولا شـعور بالانتماء نحو جماعة معينة تعتبر نفسها ذات أصل واحد أو جد واحد، فالانتماء ضرورة إنسانية، فقد بدأ الإنسان وحيدا ثم مع زوجه، ثم كوّن أسرة، ثم جماعة ثم قبيلة ثم شعب، ثم دولة قد تضـــم عددا من الشـــعوب المختلفة. فالقبيلة مرحلة اجتماعية تاريخية تجاوزتها البشرية عموما، لكنها لا تزال موجودة في مناطق مختلفة من العالم إلى يومنا هذا.

بعض القبائل العربية مارست الرعي كحرفة رئيسية (ويسمّون البدو الرحل) لأنّ الرعي يدفهم إلى تتبع مســـاقط الغيث وبالتالي عدم الاســـتقرار في مكان محدّد، لكن بعض القبائل أسســت قرى ومدنا (وهؤلاء سـموا بالحضـر)، ومارسـوا الزراعة (زراعة النخيل بشـــكل رئيس) والتجارة بنوعيها الداخلية والخارجية، مما ســـاهم في تطوير مناحي الحياة المختلفة كإقامة الأســـواق والكتابة والكهانة وبعض العلوم العملية كالأنواء والفلك، كما أدت التجارة إلى احتكاك فعال بالثقافات المتطوّرة نســـبيا كالرومان والفرس والهنود والأحباش.

آمن الإنسان العربي القديم بأديان ومعتقدات كثيرة، فاليمنيون تأثروا بالمسيحية الحبشية، وبعضهم كان يؤمن بالمجوسية الفارسية، وأما الغساسنة في الشمال فكانوا

على النصرانية دين الروم، أما العدنانيون فكانوا وثنيين بالأساس حيث عبدوا الأصنام، وبعضهم كان يعبد الشمس والقمر والنجوم، ونسبة قليلة منهم حافظت على دين إبراهيم، دين التوحيد سموا بالحنيفية والتي تشير بعض الأخبار إلى أنها كانت الدين السائد في الحجاز في زمن إسماعيل، لكن الانحرافات بدأت تداخلها حين عمد بعض الناس إلى صناعة التماثيل للأولياء الصالحين تكريما لهم وتقربا من الله عبرهم، وشيئا فشيئا تحولوا إلى عبادة هذه الأصنام نفسها بدلا من عبادة الله . وقد انتمى الرسول قبل البعثة إلى هذه العقيدة فلم يعبد صنما، ولا عجب في ذلك فالإسلام نفسه استمرار لعقيدة التوحيد التي نادى بها إبراهيم. كما نجد أنّ بعض القبائل اليهودية قد نزحت من فلسطين القريبة نحو الحجاز واستقرت بيثرب، هروبا من الاضطهاد الروماني، وقد حافظت على دينها ومعتقدها. بل ووجدت الترحيب من العرب الذين سمحوا لها بممارسة أنشطة التجارة والزراعة.

إن دارسة الأديان القديمة ومعرفتها أمر مهم جدا في فهم هذا الأدب، فهو يعج بإشارات ورموز دينية وأسطورية تعبدية عديدة، خصوصا وأنّ الجزيرة كانت تعج بمختلف العقائد والأديان المختلفة في ظل التسامح والتعايش، فقد كان العرب في الجاهلية غير متعصبين لعقائدهم.

ونظرا لظروف الصحراء فقد تكّون إنسان عربي كريم متعاطف مع غيره، يحبّ تقديم العون لأنّ البيئة قاسية وغير مضمونة، وقد تعصف بالغني كما تعصف بالفقير بين ليلة وضحاها، لذلك كان التكافل الاجتماعي سائدا، كما مجّد العربي فضائل الصدق والنخوة والشجاعة، وأحبّ الفخر والعزة والمال وكثرة النساء والأولاد الذكور. كما احترم المرأة الحرّة وكان لها بعض الحقوق، كحرية اختيار الزوج، وحرية التصرف في مالها الخاص، وحق الميراث، بل والمشاركة في التجارة وكذلك في الحرب، كما كان للزواج ستة أشكال مختلفة، أما عادة وأد البنات فكانت منحصرة في قلة من القبائل الفقيرة شحيحة الموارد، والتي اعتقدت جهلا أن المرأة قوة عاطلة لا تجلب مالا، وخوفا من أن يقودهم الفقر الشديد يوما إلى التفريط في الشرف والوقوع في العار، ولو كانت هذه العادة منتشرة لدى كل العرب لانقرضوا منذ زمن بعيد.

ج ـ الوضع اللغوي والثقافي في الجزيرة العربية:

أدى اتصـــال العرب بالثقافات الأخرى إلى اكتســـابهم العديد من الكلمات والمصطلحات الأجنبية التي أدخلوها في لغتهم على سبيل التعريب، كالإبريق والزمرد والزبرجد والإيوان والقنطرة والقســطاس وهي كلمات غريبة بعض الشــيء عن بيئتهم المألوفة، لكنها أغنت العربية. فإذا جئنا لمعرفة حالها في ذلك الزمن وجدناها تنقســم إلى لغتين أســاســيتين مختلفتين، فقد كان لأهل اليمن (القحطانيون) لغتهم الخاصــة المميزة، وكذلك الشأن بالنسبة لأهل نجد والحجاز (العدنانيون)، وقد أشار عمرو بن العلاء إلى ذلك بقوله: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا". ويكفي للدلالة على ذلك أنّ التعريف في لغة اليمن هو الألف والميم وليس الألف واللام. أمســفر أي الســفر، أمباب أي الباب. وإبدالهم الســين تاء في بعض الكلمات أنفاس إلى أنفات، والقاف إلى قاف.. الخ.

كما تميزت من جهة أخرى كل لغة بانقســامها إلى لهجات كثيرة بعدد القبائل والمناطق، لكل منها خاصــية محددة، كعنعنة تميم وهي مثلا تغيير العين في (عن) إلى همزة (أن)، (عدا) إلى (أدا)، وتلتلة قضــاعة وهي كســر حرف المضــارع، مثلا في (تشــرب) إلى (تشــرب)، وفحفحة هذيل وهي تحوبل الحاء عينا كقولنا (حتى) إلى (عتى)، وكشــكشــة أســد أي إضــافة الشــين إلى كاف المخاطبة عند الوقف كقولهم سمعتكش (سمعتك)، رأيتكش (رأيتك).. إلى غيرها من الاختلافات النطقية والنحوية. بل ويرجع الكثير من الترادف والتضــاد والشــاذ في اللغة العربية إلى هذا التعدد في اللهجات.

وقد تميزت لهجة أهل الحضــر عموما بالرقة والعذوبة والطلاوة كلغة قريش مثلا، في حين غلبت على لغة البدو الأعراب الخشــونة والغلظة وغريب الكلام، وقد ســاهم تفوق قريش الاقتصــادي ووقوعها على طريق القوافل التجارية بين الشــمال والجنوب واحتضــانها للكعبة في تطوير لغتها وأخذها لأرقى الكلام وصــبغه بصــبغتها، فتكونت بذلك لغة جميلة خفيفة الوقع أحبها العرب جميعا وتكلموا بها، مكونة ما صــار يعرف لاحقا بالفصــحى، والتي زاد نزول القرآن بها في انتشــارها وســاهم في كســوف باقي اللغات . يقول أحمد بن فارس: "أجمع علماؤنا بلغات العرب، والراوة

لأشـــعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم، أنّ قريشـــا أفصـــح العرب ألســـنة وأصفاهم لغة، وكانت قريش إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحســـن لغاتهم وأصـــفى كلامهم، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسـلائقهم التي طبعوا عليها، فصـاروا بذلك أفصـح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة".

وقد قال بعض الباحثين كطه حسين أنّ الشعر العربي القديم منحول مزيف لأنه وجد فقط بلغة قريش، في حين كان الوضع اللغوي السائد يتطلب وجود شعر بلغات ولهجات مختلفة، والحقيقة أننا لا ننكر وجود شـــعر مزيف لكننا نعتقد أنّ لغة قريش كانت هي لغة الأدب والشـعر، تماما مثلما هي اللغات القياسـية الآن مع وجود مئات اللهجات المحكية في الواقع لكن ما ينتج من كتب وأدب وعلم لا يكون إلا بها، إذن اعتمد الشعراء هذه اللغة المسماة فصحى وسيلة لنشر شعرهم مادامت هي لغة التجارة والدين والرقي، وتفهمها جميع القبائل ويكون للشـعر حظ الانتشـار بها. والدليل على ذلك أنه عندما نزل القرآن بلغة قريش لم تعان بقية القبائل في فهمه واستيعابه، بل على العكس ساعد نزوله بهذه اللغة في نشره وتوسع تلاوته.

أما الحروف العربية فيقال إنّ مبتدعها الأول هو إسـماعيل عليه السـلام، لكن لا يوجد ما يدل على أصـلها، وإن كانت لا تخرج عن الانتماء السـامي، وأقدم ما وصـلنا من هذه الحروف جاءت مكتوبة بالخط المسند.

الخط المسند

(الثمودي اللحياني الصفوي الحميري)

الخط النبطي الخط الكندي

الحيري الأنباري

الحجازي

والحجازي هو الأب المباشر للخط المستخدم حاليا، وقد تعرض الخط العربي إلى تغييرات كثيرة عبر العصـــور، أبرزها في عهد عثمان بن عفان (الخط العثماني)، وفي العصر الأموي سببها المباشر مشاكل التدوين.

وقد انعكس في اللغة ومن ثم الشـــعر اهتمام العرب بالإبل، لأنها مورد رزقهم الرئيسـي، فهي تعج بمئات الأسـماء للناقة ولحالاتها وأعضـاء جسـمها وكل تفاصـيل

حياتها، محتلة بذلك مركزا مهما في النصوص الشعرية، فلا يخلو نص مهم من ذكرها ووصفها. ولم ينافسها في ذلك إلا المرأة، فقد كان الغزل شائعا متداولا محبب الذكر لا يحلو الشعر بدونه، وعلى عكس الاعتقاد الشائع فقد كانت المرأة مكرمة عزيزة الجانب، بل وتقام الحروب الطويلة لأجلها، وتكفينا نظرة على الشعر العربي لندرك الأهمية التي حازها موضوع المرأة، فكلمات مثل "حب، غزل، تشبيب، صبا، غرام، وجد، هيام، شغف، ألفة.."، دليل على كثرة الأوصاف والحالات الخاصة التي تفنن الشعراء في بيانها. وقد ساعد على تطور هذا الموضوع الشعري ذلك الاختلاط الدائم بين الرجال والنساء، فلم تكن المرأة حضرية كانت أم بدوية ملازمة لبيتها، بل كانت كثيرة الخروج إما للتجارة أو لجلب الماء والحطب أو للرعي، أو لحضور الأفراح والجنائز، بل وحتى للقتال أحيانا. ولم تبدأ مظاهر الحشمة والتحفظ إلا بمجيء الإسلام الذي دعا المرأة إلى الاحتجاب وعدم مغادرة البيت إلا بإذن زوجها، صيانة لها ولعرضها، كما منع عنها الزينة إلا لمحارمها.

وعلى العموم فموضوعا الإبل والمرأة هما من أهم موضوعات الشعر القديم، طالما يمس الأول الجانب الاقتصادي والآخر الجانب العاطفي. ارتبطت بالإبل موضوعات وصف الحيوان والحكم والقصص والصيد والقتال، وارتبطت بالمرأة موضوعات الخمر والفخر والفروسية والأخلاق، وعليه فغالبا ما تجسد الشعر في أنماط محددة مكّررة سميت أغراضا هي الطلل والغزل والفخر والهجاء والوصف والحكمة والمدح، وذلك في نظام تقليدي متوارث.

وقد ارتبط الشعر في تصور العرب القدامى بالجن، فقد قيل إنّ الشاعر إنما يوحي له شيطان من شياطين وادي عبقر، تماما مثلما ارتبط الكاهن أيضا بالجن، فكلاهما يعبر بلغة خاصة تتجاوز اللغة العادية التي يستخدمها باقي البشر. كما كان للشعر قديما دور هام جدا في الحياة العامة، فقد كان الشاعر مكلفا بأداء دور المعلم والمؤرخ والواعظ والفنان والمحرّض ورجل السلام ورجل الحرب معا، وصدق من قال "إن الشعر ديوان العرب" فيه أخبارهم وحروبهم ومآثرهم وحكمهم بل وحياتهم. ولهذا كانت القبائل تحتفل بظهور الشاعر وتكرّمه وتأتيها الوفود مهنئة، أملا في أن يرفع شاعرها من شأنها ويخلّد مآثرها وينشر ذكرها، وهذا ما أدى إلى تحول الشعر في بعض الحالات إلى حرفة غالية المنال يتوارثها الآباء عن الأجداد بالمران والدربة، تبدأ

بخروج الصبي اليافع إلى البادية ليتشرب اللغة في منابعها الأصيلة، وليحفظ الشعر عن معلمه، ثم يبدأ في روايته لاحقا، وعند مرحلة معينة يستقل بشخصيته الشعرية ويصير له شـــعر خاص به يرويه عنه غيره وهكذا، فنرى مثلا أن كثير عزة روى شـــعر جميل بثينة، والذي روى بدوره شعر هدبة بن خشرم، والذي روى شعر الحطيئة وكعب بن زهير، وهما من قاما بدورهما أيضا برواية شعر زهير بن أبي سلمى، والذي روى بدوره شعر أوس بن حجر .

ونحن لا نعرف على وجه التحديد متى بدأ الشـــعر الجاهلي، إلا أنه بحســـب الجاحظ لا يعود إلى أكثر من مائتي سنة قبل البعثة، ومهما يكن فإن النماذج الشعرية التي وصـــلتنا تتمتع بمســـتوى راق واكتمال ونضـــج فنيين لا يؤهلها لتكون البداية المعقولة لهذا الأدب، فمنطقيا نتوقع أن تكون البدايات دائما ضـــعيفة فنيا وقصـــيرة الطول وذات موضوعات بسيطة وغير دقيقة الوزن. وصولا إلى ما يعرف بالرجز الذي نعتقد أنه أولى الأشكال الشعرية (مستفعلن مستفعلن مستفعلن).

ويجب التنبه إلى أن الشـــعر العربي كان شـــفاهيا، ولم يعرف التدوين إلا في مراحل تاريخية متقدمة، وفرق كبير بين أن يكون الشعر شفاهيا وبين أن يكون كتابيا، فالشفاهية تؤثر على المنتج الشعري من حيث كونه موجها نحو مستمع آني لا نحو قارئ بعيد، فيكون خاضعا لهذا الوضع، فيتميز بالخطابية مثلا وبشدة الانفعال والتركيز على الإيقاع والوزن ورنة القافية، والحد من الإطالة بسبب عجز الذاكرة، وكثرة أدوات النداء، وتعدد رواياته المختلفة، بل وتضيع منه أجزاء وتضاف أجزاء، وتختلط نسبته، ويميل إلى الغنائية والذاتية.. إلى غير ذلك من المؤثرات التي تدخل مباشـــرة في بنية الشعر.

لقد كان الشـــعر في المحصـــلة صـــورة حية للحياة اليومية من اســـتقرار وانتقال ومعاشـــرة للحيوان وتعلق بالإبل وحب للجمال الإنســـاني والطبيعي وخوف من القدر وصروف الزمان وتأمل في الموت والبعث. الحرية والعبودية. الحرب والسلام. وسائر نقائض الوجود.

على أن العرب عرفوا أيضـــا فنونا أدبية أخرى أقل شـــهرة كالخطابة مثلا، وقد ازدهرت لكثرة الخصـــومات والمنازعات بين الناس، فكان الخطيب يعظ ويصـــلح ويدعو، واحتاج إلى تحسين خطبته وإثرائها كيما يكون أكثر إقناعا ووصولا إلى قلوب

المستمعين. ونظرا لندرتها النسبية ودور الخطيب الإيجابي والفعال في الحياة، وكثرة الشعراء ومجونهم وميلهم المتزايد للتكسب، تمتع الخطيب بتقدير واحترام وحظوة أكبر لدى الناس.